دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في التصدي للمشروع الثقافي الاستعماري

بن عمرة السعيد

جامعة محمد بوضياف /المسيلة

-مدخل: لا تكفي هذه الوريقات ،في هذه المناسبة أن تلقي الضوء على الدور المركزي الذي لعبته ج.ع.م.ج في التصدي للاستعمار الفرنسي ولمشروعه الثقافي، فالجمعية ظاهرة ثقافية وسياسة و اجتماعية قل نظيرها في العالم العربي والإسلامي كله،وإذا جازلنا من الناحية منهجية أن نستبق المقدمات إلى النتائج لقلنا بكل ثقة وتأكيد لولا جهود المخلصين من رجال الجمعية لما بقي في هذا الوطن العزيز للحرف العربي الذي احتضننا واحتضناه لذا وجب علينا أن نتعرف – ولو في عجالة – على دور الجمعية في تكسير المشروع الثقافي الاستعماري ويحسن بنا أن نتعرف في بداءة الأمر على طبيعة المشروع الثقافي الاستعماري والآليات التي كان يعمل بها.

1-طبيعة المشروع الثقافي الاستعماري :

لا يختلف اثنان في أن طبيعة المشروع الثقافي الاستعماري يتخذ من الدين عصبا ووسيلة لتكريس ثقافته وفرضها و إحلالها بدل الثقافة القومية للشعب الجزائري وقد تجلى ذلك في :

أ- تزييف التاريخ:لقد أولت الإدارة الاستعماري للتاريخ أهمية كبرى وركزت في مقرراتها على عظمة فرنسا وعلى قوتها وقوة حضورها التاريخي ،وتجاهلت تماما تاريخ الجزائر خاصة فترة الفتوح مع الاهتمام فقط بالحقبة التاريخية الرومانية [1].

وأكدت برامجها أيضا أن مهمة فرنسا الحضارية هي استكمال مزايا العهد الروماني إذ بعد حوالي عشرين قرنا جاء الفرنسيون لأجل هذه الغاية [2] وقد جرى التجني على التاريخ الجزائري على اعتبار أن العرب والقبائل لم يكونوا عبر التاريخ قومية واضحة مميزة وان هذا الشعب توحد بالقوة خلال حقب تاريخية وان الجزائر ليست إلا مفهوما جغرافيا"[3].

أليس في هذا مصادرة للدين الإسلامي ودوره في توحيد الشعب الجزائري ؟

ب-دعم وتنشيط حركة التبشير (التبصير) :

إن النوايا الدينية لفرنسا لا يمكنها أن تخفى على أحد ،فالقائد (دوبورمون) صرح للقساوسة ورجال الدين:" إنكم أعدتم معنا فتح الباب المسيحية في افريقا ولنأمل أن تينع الحضارة التي انطفأت في هذه الربوع [4].

وفي السياق ذاته أمر قائد الحملة الفرنسية بتحويل المساجد إلى كنائس وإلغاء الأعياد الدينية والإسلامية ووضع آلية للاستيلاء على الأوقاف، وقد عد هذا خرقا للاتفاق المبرم مع الداي حسين والذي يقضي باحترام الإسلام وممارسته.

وقد ظل الجنرال بيجو نفسه يدعم عمل المنصرين ،وفي أحد هجوماته على بوفاريك انتزع 250 طفلا من ذويهم بعد تشريد أهلهم و ذويهم أو قتلهم ،وقدم هؤلاء الأطفال إلى الأب" يريمو" مخاطبا إياه " إنهم ينامي

.....ربوهم مسيحيين" [5] وقد أعلن رئيس الوزراء الفرنسي PRINCE DE POLIGNAC أن انتصار فرنسا له صبغة صليبية إذ أن سقوط الجزائر يخدم حتما الكنيسة و المسيحية معا [6] .

ج-التعليم العربي الحر: مارست السلطة الاستعمارية اضطهادا لغويا ،فالعربية حتى وإن كانت تدرس في المدارس الحكومية فإن تدريسها لا معنى له،وتدريسها في المدارس الحرة معرض للقمع الإداري ثم أن الاستعمار ظل مركزا على بقاء الأمية حيث جاوزت الثمانين بالمئة في أوساط الجزائريين[7].

وقد يحق السؤال كيف تصدت ج.ع.م ج لهذا المشروع؟

والمؤكد أننا لا نتعب في إيجاد إجابة واضحة محددة ،إن تأسيس الجمعية ذاتها وكل أعمالها دون استثناء هي تصد وتحد لهذا المشروع إنها مشروع ثقافي اجتماعي متكامل أصيل يؤمن بالمرحلية ويسعى للحفاظ على هوية الشعب الجزائري وقد وعى رجال الاصلاح أكثر من غيرهم معاناة بلدهم فأسسوا ج.ع.م.ج لتكون ممتدة قائمة في اكبر حيز ممكن أي التراب الوطني كله .

إن قيام الجمعية كان أقوى وأعظم من تأسيس حزب سياسي جزائري.

إن تبنيها لذلك الشعار الشهير الإسلام ديننا ،والعربية لغتنا ،والجزائر وطننا هو تحد ثقافي لمشروع فرنسا الثقافي الساعي لهدم هذه المقومات الثلاث بشتى السبل ،ويلخص الشعار ذاته موقف الشعب الجزائري كله من الاستعمار الذي كان يتهيأ لاحتفالية كبرى بمناسبة مرور قرن على احتلال الجزائر وهو احتفال مبطن بتلك الرغبة في دفن الهلال وقبر الإسلام واعلاء الصليب ،إن الخطر كله في هذا،ولكن انبعاث الجمعية وتجذر عملها كان ضربة قاصمة لكل مساعي الفرنسيين أي أن الظروف الموضوعية كانت مهيأة لبزوغ نجم الجمعية

في الوقت المناسب، يعضد هذا ما كتبته الشيخ البشير الإبراهيمي" لو تأخر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا" (8).

وكما أسلفت سابقا لولا هذه الثلة من الرجال المخلصين لكان وجودنا الثقافي مهددا و لكانت هويتنا ذاتها مبدلة.

لقد كانت حركة ثقافية واجتماعية واعية من مصلحين على وعي خاص تجلى في أسلوب المناورة الذكي حين أوردت في قانونها الأساسي:" إنه يمنع منعا باتا كل بحث سياسي وكذلك كل تدخل في أية مسالة سياسية داخل نطاق الجمعية" وهذا التكتيك في حد ذاته فهم متقدم لكيفية التعامل مع العدو،إذ المؤسسين يريدون تجنيب الجمعية المصير الذي لقيته الحركات السياسية الوطنية في ظل الأحكام الاستثنائية (قوانين الاندجينا).

وتحت ستار العمل الديني بدأت أعمالها الجليلة دون أن تمنع رجالها من الخوض في السياسة بصفتهم الشخصية (9)

كذلك بالامكان اعتبار الجمعية مؤسسة متكاملة لها تنظيم إداري ووسائل مادية ومالية وربما تكون آذاك الوحيدة في العالم الإسلامي على هذه الشاكلة"(10).

-إن أعمال الجمعية تندرج جلها في بناء الفرد الجزائري وتشيد صرح الأمة والحد من سياسة المسخ والتغريب

ويمكننا في عجالة أن نشير إلى هذه الأعمال:

1- التربية والتعليم (تشييد المدارس الحرة).

2- تأسيس الصحف المختلفة .

3- توظيف مؤسسة المسجد وإحياء رسالتها الحقيقية .

4- تأسيس الجمعيات الخيرية وتقديم الخدمات الاجتماعية .

5- تكوين النوادي الثقافية .

وكل مكون من هذه المكونات الثقافية يصب في بناء الفرد الجزائري والدفع به للحفاظ على هويته أو للاستمساك بها أو استرجاعها ولا يكفي ذكر أعمال الجمعية ليعبر بصدق عن تصديها للمشروع الثقافي الاستعماري فإننا نورد أيضا في السياق ذاته موقفها ذاته من مختلف قضايا عصرها وبالامكان حصر ذلك في:

1-الموقف منن الاتجاه الطرقي.

2-الموقف من قانون الثامن مارس المشؤوم (1938) الذي يمنع منعا باتا تدريس القران الكريم إلا لمن تسلمه السلطة الفرنسية رخصة.

3-الموقف من سياسة الإدماج والتجنيس

ولعل هذا يعد من ابرز المواقف واجلها و أخطرها ،لقد أصدرت السلطات الفرنسية قانونا في سنة 1919 يخير الجزائري بين امرين إما أن يكون فرنسويا بلا حقوق ، وإما أن يتجنس بالجنسية الفرنسوية رغم انفه وقد تحمس دعاة التجنيس لهذا ومن ثم بدا واضحا موقف الجمعية الصارم والذي تمكن من هدم وتفكيك هذه السياسة وبالتالي إسقاط اخطر ما يمكن أن ينجزه المشروع الثقافي الاستعماري.

وقد أبان رجال الجمعية صراحة عن موقفهم الصارم حيث كتب الشيخ الطيب العقبي :" التجنيس بمعناه المعروف في شمال إفريقيا حرام والإقدام عليه غير جائز باي وجه من الوجوه" (11)

وكتب الشيخ العربي التبسي مقالا بعنوان " التجنيس كفروارتداد "(12)

ثم جاءت فتوى الشيخ الرئيس في البصائر العدد 95 في 3 جانفي 1938 وملخصها:" التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكما من أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع فالمتجنس مرتد بالإجماع"[13].

وقد كان لهذه الفتوى أثرها العميق في أقطار المغرب وفي سائر في بلاد العالم الإسلامي.

4-الموقف من الثورة:إن موقف الجمعية من الثورة يعد أيضا في حد ذاته هدما لكل المشروع الاستعماري وقد كان الموقف واضحا لا لبس فيه .

فقد كتب الشيخ البشير رحمه الله نداء بمناسبة اندلاع الثورة المباركة (البصائر العدد 276) وصدر النداء في القاهرة يوم 1954/11/15 .

كذلك الشأن بالنسبة للشيخ الفضيل الورتلاني الذي كتب تأييدا باسم العلماء في الجرائد المصرية.

لعل خلاصة القول تقضي بنا إلى التأكيد على أن الجمعية كلها رد وموقف وجدار ضد المشروع الاستعماري بإبعاده الحضارية والثقافية والدينية.

ومما يدعم هذا الطرح وضوح الموقف من الثورة فقد أورد الشيخ احمد حماني رحمه الله في مقال نشره في مجلة الرسالة التي تصدر عن وزارة الشؤون الدينية [14] نبذا من شهادات تؤكد موقف الشيخ الرئيس من الكفاح المسلح وضرورته من ذلك:

1-مارواه احد تلاميذه الشيخ محمد الحاج بجه -من دائرة اقبو- انه كان تلميذا اوائل الثلاثينيات وأن الشيخ رحمه الله كان يسال تلاميذه الكبار هل

أديتم الخدمة العسكرية؟ ومن أجابه بنعم ميزهم عن الآخرين وصرح لهم أننا سنحتاجكم يوما وحثهم على عدم نسيان مادربوا عليه.

2-يؤكد ما سبق امتعاض الشيخ ابن باديس من التحاق بعض رجال الأحزاب طوعا اوكرها بصفوف الجيش الفرنسي بعد إعلان الحرب العالمية الثانية وقد صرح بما فحواه :" لو أنهم استشاروني واستمعوا الي وعملوا بقولي لأشرت عليهم بصعدونا جميعا إلى جبال الاوراس وإعلان الثورة المسلحة .

3-ذكر الأستاذ محمد الصالح بن عتيق مدير مدرسة الميلية أن الشيخ طرق عليه الباب ذات ليلة ففتحه وإذا به يجد الشيخ متنكرا ، فدعاه إلى النزول فاعتذر ،وأنه حدثه عن الثورة المسلحة وعن مدى استعداد الشعب في جبال الميلية قال فأجبته بأن رجال الميلية وفي جبالها رجال " بارود" وله أن يقول عليهم إذا جد الجد.

وقد انزعجت فرنسا من نشاط الرجل المكثف ورأت فيه خطرا محدقا بوجودها فدبرت له مكيده اغتيال سنة 1937 عند ما خرج عليه قاتل مأجور و الشيخ الرئيس عائد إلى بيته، لكنه لم يفلح حيث أسرع أنصار ابن باديس والقوا القبض على المجرم وأرادوا الفتك به إلا أن الشيخ منعهم وقد سجل محمد العيد هذه الحادثة في قصيدة نقطتف منها"[15].

حمتك يد المولى وكنت بها أولى فيالك من شيخ جحمته يد المولى
فيالو ضيع النفس كيف تطاولت به نفسه حتى أسر لك القتـــلا
فوافتك بالنصر العزيز طلائـــع مباركة تترى من الملإ الاعلى
وإن أنسى لا أنسى الذين تظافروا على الفتك بالجاني فقلت لهم مهلا

وقد تضافرت جهود فرنسا للقضاء على الجمعية ونسفها بتشجيع جمعية أنصار السنة بزعامة المولود الحافظي بالتنسيق مع عمر إسماعيل حيث قاما بحركة انفصالية داخل الجمعية، محاولين إدخال الإرباك والشكوك في مصداقية الجمعية متهمين رجال الإصلاح باحتكار المناصب الإدارية والمسؤوليات وبابتعادهم عن أمور الدين [16]

وانشغالهم بأشياء كثيرة وقد كانت محاولة فاشلة ، إذا انقلب السحر على الساحر وتطهرت صفوف الجمعية ممن هم موالون للاستعمار .ومن ذلك أيضا .

إصدار قرار ميشال (16 فيفري 1933) [17] . القاضي بمراقبة العلماء العاملين والتضييق عليهم ومنعهم من ممارسة أي نشاط في المساجد.

كما أن الإدارة الفرنسية نفت الشيخ الإبراهيمي إلى منطقة افلو سنة 1940 حيث يبقى 3 سنوات تحت الإقامة الجبرية .

إن الشواهد كثيرة وعديدة على أن الجمعية كانت أحد ابرز وأقوى المناهضين للمشروع الاستعماري بكل أبعاده ، وكانت تؤمن بالمرحلية ،وتؤمن بـــأن الإصلاح يفضي إلى التعبئة وتكوين إطارات عالية الكفاءة التي ستنجح في صد مشاريع الاحتواء الاستعماري، وامتلاك القدرة على طرده حين يصبح الشعب في لحظة تاريخية حاسمة مالكا لزمام أمره قادرا على أن يسترد حريته بالقوة وذلك ما كان .

الهوامش

1-اهمية التاريخ والجغرافية في البرامج التعليمية الفرنسية في الجزائر:الأستاذ عبد القادر حلوش، مجلة الرؤية ،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، العدد 2، ص: 20.

2- bullet in de l'enseignement des indigeres ,ne 3,p178.

3-السابق ص: 178

4-حركة التنصير في الجزائر: عبد القادر حلوش، مجلة الرؤية ،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر،العدد 1، ص: 119.

5-السابق ص : 120.

6-السابق ص : 121.

7-جمعية العلماء أ.د عبد المالك مرتاض ، مجلة بونة، العدد 2، نوفمبر 2004 ، ص : 40.

8-الشيخ البشير الإبراهيمي: مجلة مجمع اللغة العربية،القاهرة،العدد21، 1966، ص:143 ،.

9-التعريف بجمعية العلماء :أ/د/ تركي رابح عمارة، مجلة بونة،العدد2،نوفمبر 2004،ص:20.

10-جمعية العلماء : الاسس والمبادئ وجبهات النضال أ/د/ عبد المالك مرتاض ،بونة، عدد2، 2004 ، ص : 51

11-البصائر 22، السنة الاولى ، 5 جوان 1936، ص :2.

12-البصائر 72 ، جويلية ، 1937 ، ص :8

13- الرسالة وزارة الشؤون الدينية، العدد4، يناير، 1981 ، ص: 48 وما بعدها .

14-ديوان محمد العيد آل خليفة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 122.

15-دور ج.ع.م في الحركة الوطنية ما بين (1931-1952) احمد مريوش، مجلة بونة،العدد2 جوان 1996، ص:136.

16-السابق ص: 137.